العلوم التي يحتاج إليها المفسر

يُعنى علم التفسير بتفسير كلام الله – عز وجل – وبيان المراد منه ، ومن خلال هذا العلم نتعرف على المعاني التي يخفى علينا معناها في كتاب الله – القرآن الكريم – ويشمل بيان المعنى هذا بيان مفردات القرآن وتراكيبه أما بشرح اللغة أو استنباط حكم أو تحقيق مناسبة أو دفع إشكال ورد بالنص أو سبب النزول أو غير ذلك ، يحتاج المفسِّر إلى أنواع من العلوم والمعارف الّتي تعينه على القيام بمهمّة التفسير ، وعلى هذا فلابد أن يكون المفسِّر له على دراية وعلم بالكثير من العلوم الأخرى ومن أهم العلوم التي يجب أن يتعلمها المفسر: -

أولا: علوم اللغة العربية

ونقصد بها ما يتعلّق بها من نحو ، وصرف ، واشتقاق ، وبلاغة ، ومعاني مفردات ، وهذه من أولى العلوم الّتي يحتاجها المفسِّر؛ فإنّ معرفة اللغة العربية وما يتعلّق بها أمر ضروري للمفسِّر فالقرآن نزل ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾ (الشعراء: ١٩٥) فلا سبيل لبيانه إلّا من جهة لسان العرب ، لذا لا يجوز لأحد أن يدّعي فهماً لكلام الله تعالى فضلاً عن تفسيره ما لم يكن عالماً باللغة العربية وعلومها.

فعلم اللغة العربية هو الذي يعرف من خلاله مفردات اللغة العربية الموجودة في المعاجم المختلفة ، ويمكن من خلاله معرفة الكلمات التي له الكثير من المعاني ، فإن معنى الكلمات الواحدة يمكن له أن يغير تفسير الآية كلها ، فأن اللغة العربية تحتوى على الترادف ، وهو أن يحمل اللفظ نفسه الكثير من المعاني ، كما أنه يجب أن يعلم مضاد الكلمات ، فكل كلمة يمكن أن يكون له ضد شهير ، ولكنه ليس الضد الصحيح لها ، وغيرها من الأشياء التي يمكن لها أن تفيده في تفسير القرآن الكريم ، فأنه عبارة عن كلمات ، وفهم الكلمات متوقف على علم اللغة :

١- علم النحو

وهو ضروري للمفسِّر ومن أهمّ ما يحتاجه في مقام التفسير ، لأنّ المعنى يتغيّر ويختلف باختلاف الإعراب؛ أي يتغيّر بتغيّر الحركات.

وبعبارة أخرى : فإنّ المعنى التركيبي للكلمات ، وبالتالي معنى الجملة من الآية لا يتّضح إلّا من خلال معرفة موقع ودور كلّ كلمة فيها. فمن لا يعرف أنّ الكلمة في موقع الفاعل أو المفعول ، أو الصفة ، أو الموصوف ، أو المبتدأ ، أو الخبر ، وما إلى ذلك فليس بمقدوره أن يبيّن ويُحدِّد معنى ومراد الجملة والآية ، فقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ (فاطر : ٢٨) لا يتّضح إلّا من خلال معرفة موقع كلّ كلمة من الآية. فإن لم نعرف موقع (يخشى) و(الله) و(العلماء) ونُحدِّد حركاتها لا يمكن لنا أن نبيّن معنى الآية ومراد الله منها.

وبناءً عليه فإنّ قراءة الآية وكلماتها بنصب هاء الجلالة ، ورفع همزة العلماء يؤدّي إلى المعنى والمراد الصحيح ، لأنّ معنى الآية : الّذين يخشون الله من عباده هم العلماء دون غيرهم أي حصر خشية الله بعباده العلماء.

ولو عكس فقُرِأت بضم هاء الجلالة ، ونصب همزة العلماء لفسد المعنى.

وهذا ما دعا أمير المؤمنين علي (عليه السلام) إلى وضع أصول علم النحو وتحديد حدوده وتحقيق السبب الّذي دعا أبا الأسود إلى ما رسمه من النحو لأنّ الناس اختلفوا في المقامين وذكروا في المقام الأوّل وجوهاً ، أحدها ما ذكره ابن الأنباري في خطبة شرح سيبويه قال : إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سمع يوماً قارئاً يقرأ ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ (التوبة : ٣) بجرّ لام الرسول ، فغضب (صلى الله عليه وآله وسلم) وأشار إلى أمير المؤمنين عليّ عليه السلام : انحُ النحو واجعل له قاعدة ، وامنع من مثل هذا اللحن ، فطلب أمير المؤمنين عليه السلام أبا الأسود الدؤلي وعلّمه العوامل والروابط وحصر كلام العرب وحصر الحركات الإعرابية والبنائية ، وكان أبو الأسود كيّساً فطناً ذَهِناً ، فألّف ذلك وإذا أشكل عليه شيء راجع أمير المؤمنين عليه السلام ورتّب وركّب بعض التراكيب وأتى به إلى الإمام أمير المؤمنين عليه السلام فاستحسنه وقال نِعْمَ ما نحوت أي قصدت فللتفاؤل بلفظ عليّ (عليه السلام) سمّي هذا العلم نحواً .

فإعراب الكلمات يمكن له أن يغير من معنى الجملة كلها ، فأن وضع الفاعل محل المفعول ، يمكن له أن يغير سياق الآية ، وهناك الكثير من أنواع الأعراب التي يمكن لها أن تساعد المفسر على فهم معنى الآية ، ولهذا نجد أن علم النحو يستشهد دائماً بالآيات القرآنية .

٢-علم الصرف والاشتقاق

علم الصرف هو من علوم اللغة العربية التي يمكن من خلاله معرفة تصريف الكلمات ، والمراد من كل تصريف فكل تصريف يحتوى على معنى مختلف عن الآخر ويمكن من خلاله معرفة التصريفات ، والصيغ ، مثل (وجد) كلمة مبهمة فإذا صرفناها علمنا أن مصادرها ، وجد : تستعمل في العثور على الدابة بكسر الواو ، وفي الحصول على المطلوب بضم الواو ، وفي الغضب (موجدة) بكسر الجيم ، وفي الحب (وجدا) بفتح الواو .

أمّا الاشتقاق فهو الّذي يبيّن لنا مادّة الكلمة وجذرها وأصلها حتّى نرجع في تبيين معناها إلى جذورها ، وهذا أمر مهمّ جدّاً لمن أراد الخوض في مجال بيان كلام الله تعالى.

إنّ الكلمة يرجع لها أصل في الميزان الصرفي تكون مشتقة منه ، وبناء عليه يرجع لها أصلها فإن كانت الكلمة لها معنيان فينظر إلى الأصل التي اشتقت منه ليعرف معناها.

٣-علوم البلاغة

علم البلاغة هو من أهم العلوم التي يجب على المفسر أن يدرسها حيث أنها تبين عظمة القرآن الكريم ، وبلاغته ، وهناك الكثير من الآيات التي تدل على ذلك ، بل أن كل آية من القرآن الكريم تحتوى على بلاغة لم يقدر أحداً على أن يأتي بمثلها حتى يومنا هذا فيجب أن يتعلم كل ما يخص علم البلاغة ليخرج لنا أسرار القرآن الكريم وروعته فيتعلم ثلاثة علوم :

-علم المعاني

وهو العلم الذي يبين لنا عظمة القرآن الكريم في مطابقة الحال الذي تذكر فيه الآيات ، وما يجب أن يكون فيه مقام الإيجاز ، والاختصار ، مقام الإطناب والاستفاضة .

-علم البيان

وهو من أروع العلوم التي يمكن للمفسر من خلالها كشف المجاز ، والكناية ، وكل الأساليب الجميلة ، والعميقة في الآيات القرآنية .

-علم البديع

هناك الكثير من الأشياء الجمالية التي تندرج تحت علم البديع ، والتي يوجد منها الكثير في القرآن الكريم ، وتعطى للآيات جمال لا مثيل له ومنه قوله تعالى: ﴿ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ (البقرة :١١٧) أي أنه خلق شيء لم يسبق لأحد أن يأتي به ، أو يخلق فهو مبدع .

٤- دلالة السياق

من الأمور الّتي تُعين المفسِّر على تحديد المراد دلالة السياق ، فإنّها من أعظم القرائن الدّالة على مُراد المتكلِّم ، فمن أهمله فَقَدَ واحدة من أهمّ الدلالات ووقع في الخطأ في كثير من الموارد ، ولابدّ من الإشارة إلى أنّ دلالة السياق إنّما تؤثّر في الدلالة على المراد ما لم تقم قرينة أقوى منها على خلافها ، كما هو الحال في آية التطهير.

أنظر : إلى قوله تعالى : ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ (الدخان : ٤٩. كيف نجد أنّ سياق الآيات يدلّ على أنّ المراد من العزيز الكريم (الذليل الحقير). قال تعالى : ﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾ (الدخان : ٤٧ – ٤٩).

ثانيا: العلوم الشرعية

وهناك علوم شرعية يجب على المفسر دراستها حتى يكون مفسراً جيداً ، ويستخرج كل شيء من كلام الله – عز وجل – وينقل معناه للناس على علم ودراية وهذه العلوم هي :

١-علم القراءات

لأن علم القراءات يبين لنا الأوجه التي ورد بها نطق الكلمات فهناك قراءات مختلفة ترجع لاختلاف لهجات العرب ، وكل قراءات يمكن أن يكون له تفسير مختلف عن التفسير الآخر ، ويمكن للمفسر أن يميز بين القراءات الصحيحة الثابتة المتواترة والقراءات الشاذة والمردودة . ومعرفتها ضروريّة للمفسِّر لأنّه بها يُرجِّح بعض الوجوه المحتملة على بعض. وبسبب اختلاف القراءات يختلف المعنى المراد من الكلمات والآيات القرآنية.

ومثال ذلك اختلاف تفسير قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا ﴾ [الحجر : ١٥] ، فمن قرأ (سُكِّرت) مشدَّدة ، فإنّما يعني "سُدّت" ومن قرأ (سُكِرت) مخفَّفة فإنّه يعني "سُحرت".

٢-علم أصول الفقه والدين

الأحكام الفقهية يكون لها علة معينة من العلل ، ويأخذ الفقه من كتاب الله أولاً ثم من سنة نبيه (صلى الله عليه وآله وسلم) فيجب أن يكون المفسر على علم بأصول الفقه لاستخراج الأحكام ، واستنباطها من كتاب الله – عز وجل –وعلى المفسر أن يتعرف على كل ما يجوز في حق الله – عز وجل – وما يجب وما يستحيل ، وكذلك ما يجب ، وما يجوز ، وما يستحيل في حق رسله – عليهم السلام – وصلة علم أصول الفقه بالتفسير باعتبار أنّ قسماً مهمّاً من آيات القرآن المباركة تناولت الأحكام الشرعية والمسائل الفقهية ، وهي الّتي جُمعت تحت عنوان آيات الأحكام ، وهي موضوع لعلم الأصول. ولقد وُضعت أسس هذا العلم اعتماداً على قواعد عقليّة ، ونقليّة ، وقد استمدّ العلماء الكثير من مباحث هذا العلم من علوم مختلفة منها علم التفسير نفسه.

وهذا العلم يزوِّد علم التفسير بضوابط وقواعد عامّة من شأنها أن تفيد المفسِّر إذا استعان بها ، لا سيّما في مجال بيان آيات الأحكام.

٣-علم أسباب النزول

لأن هناك الكثير من الآيات التي يدل سبب نزولها على معناها المراد ومنها قوله تعالى ﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة : ١١٥) ظاهر الآية معناه يفيد أن على المسلم أن يتوجه إلى أي جهة شاء وهذا ليس المقصود من الآية . أسباب النزول : جمع سبب، ونقصد به : ما نزلت بسببه آية أو أكثر. وهو عبارة عن : واقعة أو أمر حدث في عصر الوحي اقتضى نزول الوحي لأجله وبشأنه ، وهذه الأسباب قد تكون مدحاً أو ذمّاً لموقف ، أو حلاً لمشكلة ، أو جواباً لسؤال ، أو بياناً لحكم ونحو ذلك.

وفيما يلي مثالان على أهمّية معرفة أسباب النزول :

قوله تعالى:﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ (المائدة : ٣). فمعرفة المراد من هذه الآية المباركة وفهمها فهماً صحيحاً يتوقّف على معرفة سبب وظروف نزولها ، ومن المتواتر أنّها نزلت في غدير خم بعدما نزلت الآية المباركة : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ (المائدة: ٦٧) ،فجمع رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) الناس في غدير خُمّ عند مفترق طرق ، وأعلن عن ولاية أمير المؤمنين عليه السلام قائلاً : من كنت مولاه فهذا عليٌّ مولاه ، إلى آخر الحديث المعروف... وأخذ المسلمون يُهنّئون عليّاً عليه السلام بقولهم : بخٍ بخٍ لك يا عليّ أصبحت مولانا ومولى كلّ مؤمن ومؤمنة.

وفي المقابل إنّ تجاهل الآخرين لهذا الحدث العظيم الّذي كان داعياً وباعثاً لنزول الآيات أدّى إلى تجافي الحقّ والخطأ في فهم كلام الله تعالى والعمل بخلاف مراده سبحانه وتعالى من هذه الآية المباركة. قوله تعالى :﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ (الأحزاب: ٣٣). فإنّ فهم الآية المباركة ومعرفة من هم أهل البيت عليهم السلام المقصودون فيها يتوقّف على معرفة الزمان والمكان والأشخاص والظروف الّتي نزلت فيها الآية المباركة ، وبالوقوف على كلّ ذلك نفهم الآية فهماً صحيحاً ونقف على المراد الإلهي منها ، فنعرف أنّ أهل البيت في الآية المباركة هم : محمّد ، وعليّ ، وفاطمة ، والحسن ، والحسين عليهم الصلاة والسلام ، وليس أيّ أحد سواهم ، كما ادّعى الآخرون حيث وقعوا في سوء الفهم والخطأ الكبير لأنّهم تجاهلوا أسباب وظروف نزول الآية المباركة.

٤-المكي والمدني

والمكّي من الآيات هو: ما نزل قبل الهجرة من مكّة إلى المدينة ، أي فترة إقامة النبيّ محمّد صلى الله عليه وآله وسلم في مكّة المكرّمة. سواء نزلت داخل مكّة أم خارجها.

والمدني من الآيات هو : ما نزل بعد هجرة النبيّ محمّد صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة المنوّرة ، سواء نزلت داخل المدينة أم خارجها.

وأمّا الحاجة إلى التمييز بين المكّي والمدني ، فلأنّه يساعد على جلاء الحقيقة في بيان معنى بعض الآيات، ويرفع الإبهام الّذي قد يقع فيه البعض ، أثناء تفسيره لبعض الآيات المباركة بسبب عدم تمييزه بين المكّي والمدني ومثال ذلك :

تفسير قوله تعالى : ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ (الشورى : ٢٣) الواردة في سورة الشورى وهذه السورة مكّية. والآية المباركة حسب المتواتر نزلت في أهل البيت عليهم السلام وهم : الإمام عليّ عليه السلام والسيّدة فاطمة الزهراء عليها السلام والإمامان الحسن والحسين عليهما السلام.

فربما يتوهّم البعض ويستبعد نزولها في حقّ أهل البيت عليهم السلام ، بحجّة أنّ السورة مكّية ، وأنّ الإمامين الحسن والحسين عليهما السلام لم يكونا في مكّة.

ولكن هذا التوهُّم سرعان ما يرتفع إذا عرفنا أنّ الآية ثلاث وعشرون من سورة الشورى مدنيّة ، وليست مكّية ، وأنّ كون السورة مكّية لا يعني ضرورة كون جميع آياتها مكيّة ، فكم من

سورة مكيّة ضمّت بين آياتها مدنية وبالعكس. وسورة الشورى وإن كانت مكيّة إلّا أنّ بعض آياتها مدنية ومنه هذه الآية المباركة.

٥- العامّ والخاصّ والمطلق والمقيّد

إنّ كثيراً من الآيات المتعرِّضة لأحكام الأفعال والموضوعات مجملة ورد تفسيرها في السنّة القطعيّة وأحاديث أئمّة أهل البيت عليهم السلام ، كالصلاة ، والزكاة ، والحجّ وغير ذلك ممّا لا محيص للمفسِّر من الرجوع إليها في رفع الإجمال وتبيين المبهم ، وهو أمر واضح.

وهناك سبب ثانٍ للرجوع إليها ، وهو أنّه ورد في القرآن الكريم مُطلقات ولكن أُريد منها المقيّد ، كما ورد عموم أُريد منه الخصوص؛ وذلك وفقاً لتشريع القوانين في المجالس التشريعيّة ، فإنّهم يذكرون قيودها ومخصِّصاتها في فصل آخر باسم الملحق ، وقد حذا القرآن في تشريعه هذا الحذو فجاءت المطلقات والعموميات في القرآن الكريم والمقيِّدات والمخصِّصات في أخبار النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته عليهم السلام.

ولعلّ قوله سبحانه وتعالى : ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ (الحشر : ٧) ، يوحي إلى هذا المعنى.

٦- الناسخ والمنسوخ والمحكم والمتشابه

من الأمور الّتي لا بدّ للمفسِّر من معرفتها الناسخ والمنسوخ ، والمحكم والمتشابه.

فإنّه من لم يعرف من كتاب الله عزّ وجلّ الناسخ والمنسوخ ، والمحكم والمتشابه فليس بعالم بالقرآن ولا هو من أهله ، كما جاء في المروي عن الإمام الصادق عليه السلام، فقد جاء في تفسير النعماني بإسناده إلى إسماعيل بن جابر قال : "سمعت أبا عبد الله عليه السلام جعفر بن محمّد الصادق يقول : "... اعلموا ، رحمكم الله ، أنّه من لم يعرف من كتاب الله عزّ وجلّ الناسخ من المنسوخ ، والخاصّ من العامّ ، والمحكم من المتشابه... فليس بعالم بالقرآن ولا هو من أهله".

فمثلاً على الناسخ والمنسوخ : في بداية مبعث الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أُمر المسلمون بمداراة أهل الكتاب في قوله تعالى : ﴿ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ﴾ (البقرة : ١٠٩).

وبعد مدّة أُنهي هذا الحكم وأُمروا بقتالهم في قوله تعالى : ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ (التوبة : ٢٩).

ومثلاً على الآيات المتشابهات : ظاهر قوله تعالى: ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ (طه :٥) وقوله تعالى: ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ (الفجر: ٢٢) يدلّ على الجسميّة. وأنّ الله تعالى مادّة ، ولكن لو أرجعناها إلى قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ (الشورى :١١) علمنا أن الاستواء والمجيء لا يراد منه المعنى المادّي.

ثالثا- العلوم الّتي لها صلة بعلم التفسير:

ومن العلوم والمعارف الّتي يحتاجها المفسِّر بالإضافة الى ما مرّ في الدرس السابق عدد من العلوم الّتي لها صلة بعلم التفسير ، منها :

١- علم الكلام

وهو يهتمّ بأصول العقيدة كالتوحيد والعدل ، والنبوّة ، والمعاد ، كما يهتمّ بالمسائل المرتبطة بها ، كالجبر والتفويض ، والحسن والقبح... وغيرها. نشأ علم الكلام من الحاجة إلى الدفاع عن الإسلام أولًا دفاعًا مسلحًا بالفلسفة، كما كان المهاجمون مسلحين بها. وثانيًا: لأنَّ المسائل كلها حتى الدين تحوَّلت إلى علوم بعد أن كانت سائرة على الفطرة. ويقوم علم الكلام على بحث ودراسة مسائل العقيدة الإسلامية بإيراد الأدلة وعرض الحجج على إثباتها، ومناقشة الأقوال والآراء المخالفة لها، وإثبات بطلانها، ودحض ونقد الشبهات التي تثار حولها، ودفعها بالحجة والبرهان.

فمثلا إذا أردنا أن نستدل على ثبوت وجود خالق لهذا الكون، وثبوت أنه واحد لا شريك له، نرجع إلى هذا العلم، وعن طريقه نتعرف على الأدلة التي يوردها العلماء في هذا المجال. وذلك أن هذا العلم هو الذي يعرفنا الأدلة والبراهين والحجج العلمية التي باستخدامها نستطيع أن نثبت أصول الدين الإسلامي، ونؤمن بها عن يقين.

كما أنه هو الذي يعرفنا كيفية الاستدلال بها وكيفية إقامة البراهين الموصلة إلى نتائج يقينية. وهكذا إذا أردنا أن نعرف وجوب نبوة النبي وصحتها، فإننا نعمد إلى أدلة هذا العلم التي يستدل بها في هذا المجال، وندرسها، ثم نقيم برهانا على ذلك. وأيضا إذا أردنا أن ننفي شبهة التجسيم عن الذات الإلهية، نرجع إلى هذا العلم، وعن طريقه نستطيع معرفة ما يقال من نقد لإبطالها. ولابد في الأدلة التي يستدل بها على إثبات أي أصل من أصول الدين، وأي مسألة من مسائل هذا العلم وقضاياه من أن تكون مفيدة لليقين.

وكان للمعتزلة الفضل الأكبر في علم الكلام؛ لأنهم كانوا أكبر المدافعين عن الإسلام لما كان يثيره اليهود والنصارى الوثنيون من هبوب، حتى لقد كانوا فيما روي يرسلون أتباعهم الكثيرين إلى البلدان الأخرى لردَّ هذا الهجوم ردًّا عقليًّا.

٢- تاريخ العرب قبل الإسلام وبعده

ومن الأمور الّتي لها صلة بعلم التفسير ، ويستفيد منها المفسِّر دراسة تاريخ العرب ، ونقصد دراسة الواقع أو الحال الّذي كان يعيشه الناس قبل الإسلام وفي زمن البعثة النبويّة الشريفة.

فقد نزل القرآن الكريم في جوّ مجتمع الجزيرة العربية ، ولهذا المجتمع خصوصيّاته التاريخيّة والاجتماعيّة والجغرافيّة ، كما له مميّزاته وخصائصه التربويّة والثقافيّة والدينيّة ، حيث كان مجتمعاً متعدِّد الأديان والثقافات.

فقد كانت الجزيرة آنذاك موطن كلٍّ من الوثنيين والمشركين إضافة إلى أهل الكتاب من يهود ونصارى.

كما كانت تسود بين أهلها أعراف وقيم وعادات وتقاليد تحكم تصرّفاتهم وحركتهم الاجتماعية. فقد بُعث النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم في هذه الأمّة ولهؤلاء الناس جميعاً.

والقرآن الكريم خاطب كلّ هؤلاء وجادلهم وأقرّ لهم أموراً واعترض على أخرى ، وعنّفهم في أشياء وزجرهم عن أخرى ، وعمل على تغيير الواقع القائم وإقامة واقع جديد.

وهو يشير في أكثر من مورد من آياته المباركة إلى تلك الأمّة ، ويتحدّث عن عاداتها وتقاليدها الجاهلية.

من هنا كانت الصلة الوثيقة بين علم التفسير ومعرفة التاريخ. فإنّ الاطلاع على تاريخ الجزيرة العربية قبل الإسلام وتاريخ عصر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والبعثة المباركة ، له الأثر الإيجابي الكبير في عملية بيان وتوضيح مداليل ومقاصد كثير من الآيات المباركة.

فلا يعقل أن يُفسِّر أحد قوله تعالى : ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ (آل عمران ١٠٣) وهو لا يعرف كيف كانت أحوالهم قبل ذلك ، وسبب العداوة بينهم ، ونوعها وحدودها ، ثمّ كيف رفع الله تعالى العداوة والبغضاء من قلوبهم ، وكيف ألّف بينهم ، وكيف كانت مظاهر الأخوّة ، إلى غير ذلك من الأمور الّتي لا بدّ من الاطلاع عليها حتّى يمكن له فهم واستيعاب ما ترمي إليه الآية المباركة.

وكذلك الحال بالنسبة إلى قوله تعالى : ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ (التكوير ٨ ، ٩) فلا بدّ في تفسيرها من معرفة عاداتهم وتعاملاتهم مع نسائهم وبناتهم ، لا سيّما المولودات حديثاً حتّى نقف عند مداليل هذه الآية المباركة.

وكذلك بالنسبة إلى قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (المائدة ٩٠).

وقوله تعالى : ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴾ (قريش ١ ــ ٤).

فكيف يمكن فهم مداليل هذه الآيات ، ما لم نطّلع على أحوال قريش ، وتجارتها إلى اليمن في الشتاء ، وإلى الشام في الصيف ، وكيف كان حالهم قبل ذلك وبعدها ، وكيف أطعمهم الله من جوع ، وآمنهم من خوف ، إلى غير ذلك من الأمور الّتي ترتبط بتاريخهم وعاداتهم وأعمالهم.